المحاضرة الثانية

علم الدّلالة في التراث العربي

يتقصّى البحث الدّلالي العلاقات الدّلالية بين الرّموز اللّغوية ومدلولاتها وما يترتّب عليها من نتائج في سلامة الأداء للغرض المقصود، وفي وضوح الرسالة الموجّهة من المتكلّم إلى المتلقّي، لأن البحث الدلالي يَنشُدُ العلامات اللغوية وغير اللغوية التي تُؤدّي غرضًا في الواقع اللغوي بين المتكلّم والمتلقي؛ إلا أنّ العلامات اللغوية تبقى تَحظى باهتمام خاصّ، لأّنه رغم اهتمام علم الدّلالة بدراسة الرّموز وأنظمتها حتى ما كان منها خارج نطاق اللغة، فإنّه يركّز على اللّغة من بين أنظمة الرموز باعتبارها ذات أهمية خاصة بالنسبة للإنسان.

ممكن تبني وبحذر معرفي ملتزمين مبدأ الموازنة الذي طرحه إبراهيم أنيس بقوله أنّ دراسة الدّلالة هي قمة التّحليل اللغوي وهدفه النهائي، إذ الغاية من اللّغة هي الاتّصال والتّفاهم، ودون دراسة المعنى يُصبح التَّحليل اللّغوي لَغوًا لا طَائل من ورائه، التّحليل اللّغوي على اختلاف مستوياته تبقى للدّلالة الحضور القوي والمباشر، لأنّه بِغياب المعنى تُصبح العملية الاتصالية جوفَاء وخالية من الجوهر، فالمعنى هو الغاية والقصد؛ حتى أنّ هناك من أطلق عليه قمّة الدّراسات اللغوية، ورأى أنه يشغل المتكلمين جميعا على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية، لأن الحياة الاجتماعية تلجئ كل متكلّم إلى النّظر في معنى هذه الكلمة أو تلك وهذا التّركيب أو ذاك، وهكذا أدلى كل متكلم تقريبا بدلوه في هذه المشكلة الخطيرة، كل المستويات تصبّ في موضوع دراسة المعنى وهو الدلالة.

نستطيع الجزم أنّ العرب خاضوا غمار هذه الموضوعات: موضوعات علم الدلالة ودرسوها في مصنّفاتهم ووضعوا لها رسائلهم المستقلّة، فقد بَكّروا بالوقوف على ظواهر اللغة الدّلالية، فالتفّوا إلى دلالة ألفاظ المشترك...كما توسعوا بدراسة أبنية الألفاظ وعلاقتها بمعانيها، وهذا انطلاقًا من فهم النص المحوري وخِدمةً له، باعتباره الجامع لكثير من الظواهر الدلالية، والتي جاءت متناثِرة في المؤلّفات التراثية من ترادف ومشترك لفظي، أو حتى البناء اللفظي والتركيبي.

الموضوعية العلمية في هذا النوع من الحقول المعرفية التراثية الواسعة ، تُلزمنا مبدأ الإنصاف في الدراسة بأن الإسهامات اللغوية لأسلافنا المفكرين في التّراث العربي،لم ينل البحث

فيها ما يستحّقه من عناية واهتمام، فما زالت مجالات كثيرة في التراث العربي اللّغوي بكرا تحتاج إلى نظرة لغوية علمية واعية، وإن وجدت هناك أبحاث لغوية ذات قيمة إلا أنها محمولة على الرّصيد المعرفي للتراث العربي، إذًا فالبحث الدّلالي العربي بإجراءاته العلمية، أنتج من داخله قضايا دلالية متعددة تعدد الفهم داخل هذا الإطار المعرفي، يأتي في مقدّمتها عنصري الدّلالة (اللفظ/المعنى).

إنّ البحوث التي ساهم بها القدماء بدءا من الهنود واليونان والرومان وصولا إلى الجهود اللغوية لأسلافنا الباحثين في التراث العربي، وعلى اختلاف مشاربهم وانتهاء بعلماء العصر الحديث فتحت الباب على مصراعيه ومهّدت الطريق وأرست القواعد لميلاد ونهوض علم يضطلع بلم شمل تلك التراكمات اللغوية والمعرفية، وفي قالب علمي ركيزته مناهج وأصول وضوابط.